لماذا لم يرد لفظ الحرية فى القرآن ؟

كدت أجعل عنوان هذه الكلمة « لا حرية فى الإسلام » . ولكنى أشفقت أن يسوء وقع هذا العنوان فى النفوس ، وأن تغيب فكرته وحكمته فى شدة الغضب منه . أو بسبب الازورار عنه .

فمما لاجدال فيه ، أن الإسلام دين الحرية . جاء ليعلنها . وليوسع مداها ، وليجعلها غاية ووسيلة ، ونهاية وبداية ، وجوهراً ومظهراً ، وسلاحًا يدفع به . وحمى يدفع عنه . فلا إكراه فى الدين ، ولا دين مع الإكراه . ولا ثواب ولاعقاب للمضطر المحمول على العمل بغير إرادة أو نية .

ولكن مع هذا قد خلا القرآن من لفظ الحرية ، وما اشتق منها . فلم يرد فى الكتاب سوى لفظ « التحرير » ، بيانًا لكفارة بعض الذنوب ، وقصد به إعتاق عبد أى فك رقبة . جاء هذا الحكم فى سورة النساء والمائدة والمجادلة ، ومثله الآية الثانية والتسعون فى سورة النساء : (ومن قتل مؤمنًا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) ، كما ذكر لفظ «الحر» مرة واحدة وهو يعنى به غير الرقيق .

أما الحرية بمعناها الذى نفهمه اليوم ، ونتداوله ونلوكه ، فلا ذكر له فى القرآن الكريم ولا أثر ؛ فما سر هذا ؟

إن القرآن ذكر أطوار الإنسان ، فمن تراب أو طين أو ماء مسنون إلى نطفة فعلقة فمضغة مخلقة أو غير مخلقة ، فطفل ، إلى رجل يبلغ أشده ، فشيخ هرم قد يبلغ أرذل العمر ، ثم ذكر خصائصه فى النعمة والشدة ، ومواقفه عند الدعوة إلى الدين من إيمان وكفر ، ومن صدق ونفاق ، ومن ثبات وتردد ، لا إلى هؤلاء ولا أولئك ، وأطال الكتاب الكريم الحديث عن

خروج الإنسان من الضلال إلى الهدى . ومن الظلام إلى النور . ومن الجهل إلى العلم . ومن الكفر إلى الإيمان . ولكنه لم يتحدث قط عن الخروج من العبودية إلى الحرية . فما السر فى ذلك أيضاً ؟

السر واضح لمن يعرف منهج القرآن وأسلوب الإسلام . فالعقيدة فى القرآن هى الأساس الذى تقوم عليه حياة المسلمين ودنياهم وأخراهم . وتتلون به وتتأثر شئون معاشهم ومعادهم .

وكل ماعدا العقيدة . إما باطل لا تحفل به . ولا تقف عنده . وإما فرع منها . أو أثر لها .

فالهداية هى غاية هذا الدين « الإسلام » . وهدف ذلك الكتاب « القرآن » . وإذا اهتدى الناس . وخرجوا من الظلام إلى النور . ومن الكفر إلى الإيمان . أصبحوا أحراراً . فالحرية لاتتحقق فى الإسلام وحدها . فالإنسان لايكون حراً . إلا إذا كان مؤمناً . بما دعا إليه الإسلام . وإذا آمن . كملت قوته . فلم يعد يحسب حساب أية قوة خارجة على هذا الإيمان . أو جاهلة له أو معتدية عليه . وهو إذ لايخاف القوة . أيا كانت . يعلو عليها ويحس أنها أصغر من أن تخيفه . أوتفرض عليه شيئاً « فيتحرر » فحريته نابعة من عقيدته . و « الله أكبر » هو جوهر هذه العقيدة . فما دام الله أكبر من كل شىء . ومن كل شخص . فالانقياد إليه . واتباع ما يأمر به . يكفى المؤمن التفكير فيما يأمر به أصحاب السلطان . فإن التزموا ما تقضى به العقيدة الإسلامية من احترام الإنسان وتكريمه فلن يثور بينه وبينهم نزاع . وإن خرجوا على هذه العقيدة « فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »

من هنا لم يتحدث الإسلام قط عن الحرية . لأنه تحدث طويلا عن الإيمان . والفرد إذا آمن بالإسلام . لايقول إنه تحرر . وإن كان التحرر عنصراً من عناصر إيمانه . وثمرة من ثماره . وكأن القرآن يقول — إذ أمسك عن ذكر الحرية . وعن ذكر التحرر — إننا إذا سلخنا الحرية عن

العقيدة . رأينا أن ما حسبناه حرية — إذا لم تصل عقائد الحاكمين والمحكومين — عبودية . فليس في الأنظمة كافة . حتى ولو كانت الإسلام نفسه . مايقى الناس من التردى فى مهاوى العبودية . فما لم يكن الإسلام حقيقة يعيشها الناس . وإيمانًا يخالط قلوبهم ؛ لم يكف اسمه ولا رسمه . ولا التمسح فيه . ليحمى حرية الإنسان فبعد عهد الخلفاء الراشدين ؛ استحالت الخلافة . إلى ملك عضوض ؛ فانطفأ أكثر النور الذى كان يبعثه الإسلام فى القلوب . فولى أمر المسلمين طغاة لايعرفهم الإسلام ولا يحسبون من عداد حكامه .

أدرك الإسلام هذا كله منذ أربعة عشر قرنًا . قبل أن تنشأ أنظمة الحكم الحديثة ومذاهب الفكر السائدة ؛ فلم يحدث الناس عن حريتهم ؛ إنما حدثهم عن أنفسهم ودعاهم إلى الإيمان لأنه الطريق المفضى إلى حرية حقيقية ؛ تواجه كل ظلم وكل تزييف .

ويخطئ الذين يحسبون أن الإيمان عند الإسلام استغراق فى الأوهام عن الدنيا ؛ أو فرار من الحياة ونكول عن أداء واجباتها الصغرى والكبرى معًا . فالإسلام أقام بناءه ؛ بعد جهاد كابد فيه المقاتلون الأوائل ؛ ومن جاء بعدهم ؛ مشكلات الحياة اليومية ومآزق السياسة الدولية ؛ ثم قال الإسلام للمسلمين إن المرء يثاب حتى على اللقمة يرفعها المرء إلى فم زوجته . وقال لهم إن مداداً تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء ؛ وقال لهم إن فى ذنوب العبد ذنوبًا لايكفرها الصيام ولا القيام ؛ فلما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم : « وما يكفرها ؟ » قال لهم مامعناه : يكفرها السعى فى المعايش . من أجل ذلك سكت القرآن عن ذكر الحرية .